جبل الثلج

بقلم : محمد حسن عبد الله

« لا تشغل نفسك كثيرا بما يبدو من جبل الثلج . حدق في الأعماق بحذر . واشدد قبضتك على الدفة » .

كان مصرا على أن اصحبه .. ألا افارقه غاضبا .. وحزينا ، وما كان هو سبب عذابي .. وما كان باستطاعته أن يجنب جذور ذلك العذاب ... ولو استطاع لما توانى مهما كلفه الامر .. ولقد بذل ـ من صدق أخوى ، كل ما يستطيع في سبيل تحويل العيسة التي تكسو وجهي الى بسمة أو علامة ارتياح .. ولكل عيشا يحاول .. ان قلبي فيما يخص هذا الجانب كقلوب النساء !! متوحد الاتجاه .. اذا ضحك انتصر في السرور ونسى كل شيء عدا اللحظة المرحة التي يعيشها .. واذا عبس تجهم وبئس وحال الدنيا ظلاما في ظلام ..

ولقد كان (حسين) الطيب بما يبذله من محاولات للتسرية عني جديرا بأن أتحامل على نفسي فأتجاوب معه ـ ولو تظاهرا ـ ولا أدعه هكذا حائرا لا يدري ماذا يفعل ..

ـ اترى يا رفعت .. كل السائرين في الشارع ضاحكون متشابكوا الأيدي الا أنا وأنت !! تعيس وكأننا نحمل الدنيا على رءوسنا .. وتشاءم كأننا روح مع ورحته عائدا من بيت حماته!!

وابتسمت .. فعد ذلك انتصارا له واعترض طريقي واضعا يده على كتفي بينما تحاول اليد الاخرى استخلاص الحقيبة من يدي وهو يقول في مرح :

ـ الشيء تبسم .. ما رايك وقد حللت العقدة ان تعود ! ؟ انتصر على شيطانك واطعمني .. انت تعرف على اي حال تركت اخواتك ..

ـ أرجوك يا حسين ـ لا تضايقني .. انت روح اخي .. لكنك في قلبي آخ .. لو كان ما احببته أكثر منك .. لكن .. هذه المرة .. دعني أمضي ..

ـ الم تحضر معك كتبا تكفيك اسبوعين ؟ معنى ذلك ان نيتك كانت متجهة للبقاء هذه المدة .. و ... انت تعرف انه لابد لنا فيما حدث .. فما دلينا ان تحرمنا من ..

ـ مم أحرمك يا حسين ؟ .. هل ..

آ .. كنت اريد ان اقول .. هل تسخر مني ؟ لكن كيف اقولها وأنا على يقين من ان ذلك ابعد ما يكون عن تفكيره .. وانه مخلص في حبه لي ،

صادق في اعتزاره ورده ، يبدل ما يبدل عن رضا وطيب خاطر .. هل انى لاحس في لهجته الرقيقة انه يعتبر قبولي لمعاونته تفضلا مني .. لا منه ويرى في ويارتي له .. شرفا وتكريما .. لكن احاسيسي الحاسمة لم تكن ترضيني .. كنت اشعر في تلك اللحظات بأنني عبء عليهم ، وانني احملهم من امري مالا يطيقون او يريدون ..

ـ من اجل خاطري ابق معنا يوما ..

ـ من اجل خاطري دعني اذهب .

كنا قد بلغنا ميدان المحطة .. وسيارات التاكسي تملأ جوانبه . وما ان وجدت سيارة تقصد القاهرة ويقصدها فرد واحد حتى طمت الفرحة فوق ملامحي وكأني انقذت من مأزق . فنظر حسين الى مرورى في اسى وقال

ـ الى هذا الحد صرنا نضايقك ؟

قلت وانا اضع الحقيبة على المقعد الخلفي . ليس انت يا عزيزي .. انسى الذي اضايق نفسي . وما اريد ان اضايقكم .. غدا ستعرف .. وتعذرني وان لم تعرف فستعذرني ايضا .. انا واثق من ذلك .. انت مخلص .. وطيب .. هذا رايي فيك .. اليوم .. وغدا .. واني ان أمت .

كنت اتمهل لحظة الوداع لأحلو الى نفسي .. ان في قلبي آلاما كثيرة اعرف أن التخلص منها مستحيل .. ولعلي لم أكن أسعى الى التخلص منها .. كنت فقط اريد ان انظمها فاستحضرها الى خاطري مشكلة وراء مشكلة .. واقلاها .. وهكذا اظل اتأمل واحترها في تلدد الى ان تهدأ نفسي واستريح .

وما كادت السيارة تتحرك وأصابع حسين ما تزال تعبث حتى بادرت بإغلاق الزجاج ونظرت خلفي فوجدته لا يزال واقفا حيث كانت السيارة ، وخيل الي ـ برغم الضوء الباهت ـ ان في عينيه دموعا وان قلبه كسير حزين .. فوددت لو توقفت السيارة حتى أعود فأعانقه !! لكنها كانت تنطلق ..

كنا خمسة ـ غير السائق ـ وقد اشتبك الراكبان في المقدمة الى جوار في السيارات .. اما الراكبان في المؤخرة حديث معه حول معدل السرعة ومعدل الربح .. وخواص كل نوع من انواع غيري ـ فقد اسند الراكب الى جانب الباب راسه الى الزاوية وأغمض عينيه .. والذي في الوسط خلع حذاءه ووضع قدميه على ظهر المسند الأمامي واسترخى في اعمال وراح يدندن في خفوت حتى توهمت في لحظة ما انه مطرب في طريقه الى احياء حفل .. وانه يمرن حنجرته !! لكني نفيت هذا الظن عندما اكتشفت كثرة ما يعترض اللجية من حشرجات وانسداد .. ان الطريق الى القاهرة يستغرق ساعتين . والنيات على وضع واحد طوال الرحلة أمر ممل .. ومن هنا فقد فعل كل فرد ما يحلو له .. وانصرفت انا الى ما يحلو لي ..

كان الليل ساكنا والحقول تترامى على جانبي الطريق المظلم الذي تمزقه أضواء السيارة المنطلقة ثم تتركه يلتئم من خلفها ـ وكانت أضواء المدينة تبدو من بعيد ـ خلفنا ـ وكأنها اشباح قائمة في صحراء مخيفة .. وما كادت السيارة تعتدل على طريق القاهرة الرئيسي حتى

احسست بأني حققت رغبتي وصرت وحيدا برغم الأجسام الخمسة التي تركب السيارة ، فالتفت بجسمي المكدود الى المقعد في ارتياح شديد .. ثم أتعجل استعادة وعيي وتأمله ؟ ان الطريق الى القاهرة طويل .. ولكن قصتي أطول .. وأنا لا أدري .. انها تروقني برغم أنه لا جديد فيها .. هل أنا معجب بنفسي فأذكر آلامي لأتذكر صمودي واحتمالي؟ أم أنني أكررها فأتذكر آلامي لأعذبها بها ؟ لا أدري !! كل الذي أدريه أنني فتى معذب ليس بيني وبين القدر خصومة .. انه لا يتعمدني بابتلائه .. لكنني ـ ولأمر ما سبب معروف ـ أجدني أفكر تفكيرا مجردا واصبح كل ما يعترضني بلون قاتم .. او جعلوني قائد معركة لتعين أن أكون أول شهيد أكثر من أن أكون البطل الظافر .. لماذا يروق لي ان ارى دمه تسكب من احق أكثر مما ارى نظرة اعجاب ترمقني ؟؟ لا أدري ! بعض الناس يقولون ان سبب حزني هو أني لم ار أمي فاستقر احساس اليتم في قلبي ! وبعضهم يقول ان السبب هو ضعف جسمي الذي يجعلني أحس بالضآلة واحس عطيات توهم أن سبب ذلك هو فشل قصة حبي ! وعطيات كمال النساء لا ترى الا الاسباب القريبة .. أو السبب الاخير .. ولعلي اخترت الدراسة في قسم علم النفس لأحل مشكلتي وأفهم نفسي .. وبعد سنوات ثلاث من الدراسة أسائل نفسي : من أنا ؟ فأعيد جوابا .

ما كنت أكتب الكلمة الاخيرة في الامتحان حتى كنت افكر في عطلة ممتعة في مدينتي الصغيرة بعيدا عن مدينة الضباع التي اشعر فيها كأني غريبة تائهة في محيط .. هناك مرتع الصغير .. يعرفني المقال والحوار والمكوجي .. ويعرفني أمير الشارع وجيرانه واطفاله .. ما كاد اهلو البيت حتى القى التحايا بعيد ويسارا .. واتلقى « صباح الخير » و « نهارك دل » وكأنها ورود تنثر في طريقي .. وعندما رأيت القاهرة أعجبت بروعتها .. لكني كرهت ضياعي فيها .. حتى البواب الذي أتقاضاه ايجار الشقة كل شهر لا يكاد يعرف اسمي كاملا .. واصحاب البيوت ينظرون الى باستعلاء .. نحن آسفون .. لا نسكن العزاب !! »

ـ يا سيادتك .. كل متزوج كان أعزب !!

ـ لكنه لم يسكن عندنا الا مع زوجته .. واصبح من حقه أن يحتفي عليها .

ـ هل أتزوج من أجل المسكن ؟! يا ناس أساليبكم ليست مثل بعضها ..

ـ آسفون .. انا لا ندري اي اصبح البت !!

وربما اسير في شوارع المدينة القاسية ساعات وساعات فلا يحادثني احد .. كأني غريب عن دنيا البشر .

كانت اضواء السيارات التي تقابلني في الطريق تتراءى لي من مقعدي في اخلف منعكسة على الزجاج الأمامي في عمودين راسيين .. وكلما تقاربت السيارتان المتقابلتان تضخم العمودان من أجل وتقاربا من أسفل وتمايلا على جسميهما الى اليسار حتى يمحيا بمرآة السيارة الاخرى لنا ثم مضيها من خلفنا وكانت هذه الحركة الرتيبة تجذب بصري فأراقبها في تلقائية غير واعية .

لكني تنبهت في لمحة على أن العمودين المرسومين على الزجاج لم يميلا الى اليسار .. وسمعت قرامل شديدة انطلع لها قلبي .. وانحدرت سيارتها الى أقصى يمين الطريق ثم توقفت . لكن السيارة الاخرى لم تأبه بها .. فتطلع اليها سائقها بغيظ وقذف مؤخرتها بصفع شتائم جارحة منها سائقها بأنه مسطول ابن مسطول .. آه ياسائقنا لو تعرف .. انني الآخر اعيش في حذر لديد وهو سخرى من اطياف امهاتي الثلاث آآآ ان احساسي نحو اخواتي احساس الابن نحو أمه .. كنت اشعر دائما انني جزء منفصل عن أصل كبير. فما اكاد اعود الى مدينتي الصغيرة - وأطرق باب البيت طرقاتي المعهودة - ويفتح الباب وتعم الصحة اركان الجنة الصغيرة والتقي مع الشقيقات في عناق طويل .. حتى أشعر بأني أكمل نفسي ..بأني اسلم اليها أجزاءها الضائعة.. ثم يأتي حسين .. زوج أختي الكبرى. فيشد على يدي فاحس بقلبه يعانق قلبي .. ويعلن الرجل الطيب بأنه لن يبارح البيت ذلك المساء من أجلي .. انه في شوق الى .. وانا ايضا يا حسين ... لكن .. ارجوك .. دعني مع اخواتي.. انك لا تعرف .. ان هناك سؤالا حائرا ما زال يقفز على طرف لساني .. لن اقوله بحضورك .. اخرج ارجوك .. يا الهي .. كم يضايقنا الذين يحبهم من حيث لا يشعرون !!

ونزل حسين ليشتري فاكهة .. انها فرصتي .. بلا ريب أو دوران ..الوقت ضيق وأختي تعرف كل شيء .

ـ كيف هي يا عطيات .

ـ من

ـ ومن غيرها ؟

قالت وعلى فمها بوادر بسمة خجولة- المرآة ؟

ـ ومن غيرها ؟ انني لا أرى صورتي الا في عينيها الضاحكتين .. لولا وجود حسين فملتكم على السهر معي هذه الليلة في الشرفة يرغم برد (طوبة)..لعلها أن تظل من تاهدتها .

ـ ولو أطلت فلن تجد صورتك في عينيها .

ـ لماذا ؟

ـ دعك منها .. اصرف النظر .

ـ بالله لا تعذبني .

ـ ستجد في المرآة صورة رجل آخر .

ـ ماذا ؟

ـ لقد تزوجت !!!

.. لقد تحطمت المرآة .. صارت شظايا وقطعا صغيرة غير متناسقة فصار لي الف وجه ووجه .. في كل قطعة وجه على نسق معين .. لكنه ليس النسق الطبيعي .. لقد تحطم قلبي هو الآخر فصار شظايا ... مقتولة لا قاتلة .

وبكت اصغر اخواتي ... وحاولت عطيات ان تنهرها لكنها لم تستطع أن تمضي .. وقامت الوسطى الى حجرة أخرى تقاوم شهقاتها .. واحسست أنا باختناق شديد وبقلبي يسحق تحت ثقل جبار .

وسمعنا اقدام حسين تصعد السلم فاستعدنا هدوءنا سريعا.. والقى امامي

مستوى تضحيتهم العظيمة .. انهم يقتطعون من طعامهم ليعطوني .. أما أنا فساعطيهم ما بقي مني ... وشتان ما بين الموقفين !! آه ما هذا الذهول ؟ هل أنا في حاجة مزيد من الآلام لأسترجع الماضي على هذا النحو المؤسف ؟ أما كفاني هم هذه الليلة ..

وفي الصباح كنت أقف في الشرفة حافيا أمشط الشعر متهدل الثياب . لكني كنت يقظا تماما . وكانت كل خواطري تتجه الى الفائدة التي أشرقت منها الشمس على قلبي ذات صباح فأدفأته ... ثم عادت الى الأبد ..

ـ يا حسارة .. عادت عليك هذه الشرفة حتى تقف فيها دون أن تغسل وجهك ؟

ـ ولماذا أغسله يا عطيات ماذا في الحياة من جديد حتى أجدد نفسي لاستقباله ؟

ـ في الحياة مستقبلك وشبابك وأيامك الزاهرة .. ونسمة الدنيا العريضة .. عام واحد وتتخرج .. وعام آخر ويمتلئ جيبك بالمال .. وتتهافت عليك الحسان فتختار من يريد قلبك .

ـ لقد اختار قلبي وانتهى الامر .. وما أظنني سأستطيع أن أختار غيرها

ـ أنت واهم .. انك ستحب غيرها .. وربما غيرها أيضا .. وانها .. والله .. لا تستحق منك كل هذا الأسى .. انك لم تتزوجها على أي حال لتحزن لفراقها كل هذا الحزن .

ـ بل انني تزوجتها .

ـ تزوجتها ؟!

ـ نعم تزوجتها .. الفتها وتزوجتي .. تزوجت .. وتناشت معها .. فمادا بعد ؟! وربما كانت الصلة الجسدية بين الزوجين تخلق فيهما من الاحاسيس ما يزيد الحب او ينقصه لكن الحب هو الوضع الانساني المتعادل .. هو الانسانية الحقيقية .. وقد عثرت على انسانيتي في حبها . الحب احساس لا يتوقف على الرؤية الخارجية .. هناك من هي أجمل منها بلا شك .. لكنها لن تروق لي مثلها .. انها مسألة احساس .. ان تهافت السياح على ايطاليا هذا ليس معناه ان ايطاليا أجمل من مصر ؟! ولكن معناه انهم يجدون احساس الراحة متوافرة هناك عن هنا .

ـ لا .. معناه أن ايطاليا استطاعت ان تجذبهم فاكتفوا بها ظنا منهم انه ليس هناك مثلها .. وغدا تجد ايطاليا اخرى تجذبك وتعطيها نفس الاحاسيس وربما أكثر !!

ولمعت في ذهني صورة خاطفة لزميلة في الكلية أظهرت نحوي شيئا من الود لكني لم أحاول مجاراتها لما كان يملأ قلبي من هيام بالمرأة في المدينة الصغيرة .. عجيب .. أأنكر في الأخرى ولا زال قلبي يرف من الأولى ؟! كلمة عابرة من أختي تقولها لتغري قلبي تحولني من فتى مخلص الى عادر لا قيمة عنده للذكرى .. ولا وفاء ؟

ـ صدقني ـ الزمن .. الزمن يا رفعت يصلح اشياء كثيرة .

ـ الزمن هو الذي أفسد كل شيء .. لو أن الزمن تقدم بي عاما أو تأخر بها عاما لكنت تحررت ولأمكنني طردها من الوقوف الى جانبها وشجاعة وحماية نفسي وحمايتها من المصير التعس الذي يساق اليه .. كل البدء من الزمن .

ـ سامحك الله يارفعت .. لو نظرت الى الوراء لرأيت نفسك منذ سنوات طفلا حزينا يبحث عن تفسير لرؤياه الشحن .. لكنك الآن .. رجل .. مكتمل .. ولك مستقبل .. كلك معذبات .. أليس غريبا ان تعذبني أختي صاحب معذبات وأرى نفسي منذ لاتعدم العذبات ؟! هل هو الكمكة في يد اليتيم عجبة ، أم أن في هذه المواقف حقيقة لكني لا أراها لشدة التصاقها بي

عندما تتحطم المرآة نرى كل شيء في غير مقاييسه الطبيعية وتحتل صور المرئيات .. وتبدو المعالم متناثرة شاذة .. لم تعد مدينتي الصغيرة جميلة كما كانت ، لم أسمع لضجيجات أحد . لم أبتسم للأطفال . بل أزعجني صياحهم في الشارع وأرهق رحمتي .. لقد تحطمت مرآتي الخاصة التي كنت أرى صورتي مستكملة في قراراتها . وعدت انسانا ضائعا .. برغم أخوتي . وكان ضروريا ان أرحل ، لكن عطيات حاولت أن تثير دموعها في طريق عودتي حتى تحملني على البقاء الى انتهاء العطلة .. لكن .. هل أنا حقا في عطلة ؟ بالعكس .. انني في السجن .. سجن من عذابي .. ولكن أحدا لم يستسلم .. ولا أنا .

ـ ارحموني واعفوني اسافر بلا ضجة

ـ دعه يا حسين .. دعه لحاله . لقد كان يزورنا من أجلها وقد انكشف الغطاء .. دعه يذهب .